

الوضع الاجتماعي في الجزائر خلال العهد الفرنسي

أ. د. عبد الجليل مرتاض

مقدمة:

الحديث عن الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية من سنة 1830 إلى سنة 1953 حديث لا ينقاد لباحث إلا بالإطلاع العام على أحوال هذا الشعب قبيل الاحتلال ليرسم صورة متقابلة بين العهد التركي والعهد الفرنسي، إلا أن الغوص في هذه الفترة قد ينسينا حقيقة الفترة التي تريد أن تقدمها حتى وإن كان هذا لا يمنع منعاً باتاً من الإشارة إلى تلك الفترة كلما استدعت ضرورات السياق ذلك، والحديث عن هذه الحقبة المأساوية لن يصرفنا كل الانصراف عن الإشارة في مدخل هذا العرض إلى خصوصية الشخصية الوطنية وجوانب أخرى مكملّة أو موضحة لهذه الأوضاع، ولاسيما الأوضاع الاقتصادية والفلاحية والتعليمية والدينية والثقافية مع إيماننا بأن هذه الأوضاع كلها تحتاج إلى حديث مستقل في كل منها على حدة، ومن ثم فإن حديثي لن يتجاوز الكشف هنا عن كل ما هو اجتماعي إنساني والذي كان يعاني منه هذا الشعب في فترة حالكة.

الشخصية الجزائرية:

إن الشخصية الوطنية تميزت عبر العصور والأجيال بأنها شخصية تمثل الدولة، وتمثل مجتمعتها، وتمثل عصرها، ولم تعرف في أي عصر من العصور دولة تأسست على هذه الأرض كانت أقوى وأعتد من المجتمع الذي تجسده هذه الشخصية، ومن أجل ذلك نلاحظ أنه كلما كانت تهب أنواء وعواصف عدوانية على هذا الشعب وتتحل دولته القائمة، سرعان ما تنبعث وجوداً بفضل قوة هذا المجتمع الذي جبل على إباء الضيم ومقاومة الفساد في الأرض، ومؤازرة الضعفاء فسقوط داي الجزائر وتسليمه مفاتيح العاصمة للمحتلين لم يكن مجسداً لإرادة الجزائريين ولا مشورتهم، لأن الجزائري يعرف كيف يفرق بين الهزيمة المفروضة والاستسلام الظرفي، لأن حكم الدايات في الجزائر لم يكن يعبر عن الرضى المطلق

للقبائل والتجمعات الشعبية، ولم يكن بين هؤلاء، وأولئك علاقات اجتماعية متينة باستثناء الدين، بل علاقات سياسية مبنية على الأخذ أكثر مما كانت قائمة على العطاء، ولذا لم يجد المحتل صعوبة لسحقها في بضعة أيام، حتى وإن كان سقوط مدينة الجزائر واستسلام بعض الدايات في مقاطعات أخرى لم يكونا سقوطا وخضوع الشعب الجزائري ولكن الشخصية الوطنية حافظت على كينونتها طوال حياتها إما في ظل دولة مركزية يدين لها بالوفاء والإخلاص كلما اقتضت بنهجها العقائدي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وإما في غيابها تماما، ولذا فإن سقوط "الدولة المركزية في الجزائر عام 1830 -كان- عديم الأثر على التشكيلة الجزائرية"⁽¹⁾.

والدولة مهما كانت قوتها، فإن هذه الشخصية لا تعدّها برجاً متعالياً فوقها، ما دامت هي نفسها مؤسسة تنظيمية وأجهزة منفذة لخدمة إرادة الشعب وطموحه إلى حياة أفضل.

عزيمة الشخصية الوطنية:

ومن قوة هذه الشخصية عبر الأحداث العظمى والقاسية أنها لم تخنع لأي دخیل على مر التاريخ والأجيال ذلك الخنوع الذليل المرحب بحماية أجنبية ونحوها، فاستنجد سكان هذا القطر بالدولة العثمانية الإسلامية إنما كان من أجل حماية هذه العقيدة المشتركة بعد المعاناة التي قاستها الجزائر لتوفير الأمن والحماية والسكن والرزق... للمسلمين المطرودين من غرب العالم الإسلامي، والجزائر لم تدخر وسعا في إيجاد كل من استغاثوا بها من مسلمي حوض البحر الأبيض المتوسط إلى درجة أن اسم الجزائر في مفهوم بعضهم يعني "الغازية" على أنها أخضعت المسيحيين.

ومن المواقف التاريخية لهذه الشخصية أن قائد القوات الفرنسية الأعلى حين طلب من سكان قسنطينة المحاصرة سنة 1837 أن يستسلموا أجابوه خطياً: "من الأمة المحافظة على شرفها، إلى العسكر الفرنسي المعتدي على حقوق غيره، وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها، نعم إن مركزنا أمسى في خطر عظيم، ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت، موقوف على قتل آخر واحد منهم، واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا"⁽²⁾.

الشخصية الوطنية في ظل الأمة:

وللبيب أن يعتبر من جملة استعمال الأعيان للفظ "الأمة" التي يحاول الاستعماريون ومن نهل من آبار ثقافتهم إنكارها، ولست أرغب في إثارة هذا المشكل المثار من جديد وقد دحضها باحثون جزائريون أفذاذ عرفوا بالقوة في البحث وسعة الإطلاع والبعد عن التعصب إلا التعصب العلمي النزهي، وأخص منهم

الأستاذ مولود قاسم والدكتور أبا القاسم سعد الله⁽³⁾، بينما تحاول جهة أخرى أن تلطف من هذا الموقف، وتقرر أن الجزائر سنة 1830 كانت بعيدة عن أن تملك صفة الأمة، ويُحَوَّن باللائمة على الاستعمار الفرنسي الذي عرقل في كل مرة هذا الشعب من خلال عرقلة المقومات الأساسية التي تقوم عليها الأمة.

وإذا كان لابد من التحليق حول الموضوع المثار فإني أقول بأن كل مقومات الأمة وصفاتها قبل حلول الاستعمار الفرنسي في الجزائر كانت موجودة، ألم تكن الجزائر ذات دين موحد، ولغة وطنية رسمية، وعادات وتقاليد، وتاريخ، وروابط اجتماعية عامة، وشخصية لها كينونتها التي تميزها عن المجتمعات والشعوب الأخرى؟ أم أن عناصر الأمة الاعتداء على الشعوب المستضعفة ونهب مواردها وخنق حرياتها العامة؟ إن نظرة أي معاصر اليوم للأمة تختلف من غير شك عنها لدى أي مؤرخ يمجّد همجية الاستعمار في صورة تحضير وتمدين.

الدولة مجسدة في الشخصية الوطنية:

إن مقاومة الاستعمار كانت مقاومة عامة عبر كل شبر من أنحاء التراب الوطني المعروف بحدوده الحالية، والكل يعرف هذا، لكن فرنسا تعرفه أكثر من غيرها، وظلت مقاومة الصحراء مستمرة حتى عام 1917 في منطقة مثل جنات.

إننا لا ننكر أن تلك العناصر على المستوى الميداني والعسكري كانت مبددة، ولكنها لم تتفتت روحيا أو اجتماعيا في أي عصر من العصور، وذلك التبدد الميداني لا الوطني عرفته كل الشعوب قبل نشأة ما يسمى بـ"القومية"، لكن الشعب الجزائري منذ الفتح الإسلامي عرف كيف يعيد تنمية شخصيته لأنه وجد الحضارة العربية الإسلامية إطارا ملائما لاستكمالها وإلى الأبد، ولكن ليس من إطار تقويعي بل في إطار شامل حتى وإن كان قد ارتكز على الدويلات والممالك هنا وهناك في البداية، وحدث هذا حتى في أوج قوة السلطة المركزية في بغداد، لأن الشخصية الجزائرية كما أشرنا من قبل هي التي ظلت ومازالت تجسد الدولة الجزائرية، ومن أجل ذلك فإنها لا تضحل باضمحلال هذه الدولة، بل تسعى جاهدة وبشتى الوسائل ولو بعد قرون وأجيال لإعادة بنائها المتماشي مع المكونات الحضارية الآنية، فنهاية حرب الأمير عبد القادر لم تكن توقيفا نهائيا، بل تغيرت طبيعتها فقط، وهذا هو الأهم، لأن الصمود والتحدي أقوى فعالية من الحرب المنظمة حين لا يبقى إلا الصمود هو السبيل الوحيد للشعوب.

السمات الداخلية للشخصية الوطنية:

هل من حقنا أن نتساءل: إن الصراعات الثقافية العنيفة التي ظلت قائمة طوال فترة الاحتلال، ماهي دوافعها؟ أليست راجعة إلى أن فرنسا كانت مؤمنة بوجود عناصر ثقافية أخطر من الأراضي والموارد التي نهبت؟ لقد أدركت هذا فعلا، ولكنها أخفقت أكثر من تسعين في المائة. وهكذا ظلت عناصر الأمة الجزائرية بارزة شامخة في جوعها وعرائها.

هذا وإن الشخصية الوطنية مشهورة بكره الدخيل المتجبر، وإذا فشل في مقاومته يعمد إلى إشعال النيران في المخازن والحقول وتكسير جرار المؤن، ثم يحمل ما يستطيع حمله أو أخذه ويتوغل في الجبل هروبا من هذا الدخيل، واستعدادا لمقاومته، هذا ما عمد إليه المواطنون بعد دخول الجيش الفرنسي إلى الجزائر حتى لا يستولي على هذه الذخائر العدو، وصنعوا نظير هذا مع غير فرنسا، وسواء كانوا محقين أم مخطئين فإن هذا هو اعتقادهم الذي ظلت صور منه تتكرر عبر التاريخ، وحذا حدّ سكان الجزائر سكان وهران الذين بمجرد علمهم دخول فرنسا إلى الجزائر، رفضوا أن يواصلوا الاعتراف بسلطة الباي وشقوا عصا الطاعة، وزيادة على ذلك نهبوا المزارع التابعة لباي وهران، واستولوا على كل ماشيته من الدواب والخيول... إلخ. إنهم كانوا يعتقدون أن الفرنسيين يريدون غزو كامل الإيالة، وعليه قاموا بنهب كل ما كانوا يلاقونه للاستفادة منه بدلا من تركه لهم⁽⁴⁾.

الأمير عبد القادر نموذجا للشخصية الوطنية المقاومة:

وأما الأمير عبد القادر الذي يمثل بحق هذه الشخصية الفريدة في ذلك العصر الكالح، فإنه بعدما ضاقت عليه الأرض من الداخل والخارج قال قولته المشهورة: "إلى إن فقدت المعاضد والمساعد، وفنى الطارف من أموالى والتالد، ودبت إليّ من بني ديني الأفاعي" قرر أصحابه وليس هو وحده إيفاد بعثة مفاوضة مع الجنرال لاموريسير من أجل جعل حد لحرب ضروس تباينت فيها الكفة عدة وعددا وعزيمة حقًا لدماء قلة قليلة من أبرياء بقوا حتى آخر لحظة بجانبه دفاعا عن الشرف الوطني، مؤمنين كل الإيمان بأنهم أبدوا الحرب ولم ينهوها، وذلك بعد أربعة عشر عاما تحت راية الأمير، ذاقوا فيها مرارة الهزائم حيناً وحلاوة النصر حيناً آخر.

ولكن إيقاف الأمير لتلك الحرب لم يكن إلا إرادة قائد بطل محنك ولجها من باب واسع، وغادرها من منفذ ضيق، ولم تكن تعبر قط عن إرادة شعب بأكمله، والذي جسده أكثر من سبعة عشر مقاومة وثورة، أو بعبارة أدق لم يكن إلا استراحة للتفكير والتخطيط ورد النفس وتوفير الذخائر وشحن الهمم.

وتلك الثورات التي تمثل فوران هذه الشخصية وعدم احتمالها لأي دخيل على الرغم من فشلها في كل مرة وجهة عسكريًا، فإنها ظلت تشكل عنصراً حاسماً من عناصر الحفاظ على الوعي الوطني الجزائري والنضال

المستمر، إذ ليس من السهل تجنيد مائتي ألف فارس وثائر في مقاومة شعبية واحدة مثل ثورة الشيخ المقراني، كما أنها ظلت تشكل حصنا لخرافة التجنيس والاندماج وغيرهما من مكائد الاستعمار.

العلاقة بين الجزائريين والأتراك:

كانت الجزائر تحيا مدنا وأريافا في سلام ورخاء لا يخلوان بين كل حين وآخر من متاعب وقلقل ومجاعات في الحكم التركي، ولكنهم مع ذلك كانوا سعداء منضبطين في منطقة وقبيلة، وأشقياء ثائرين في جهة وقبيلة أخرى، بيد أنهم كثيرا ما يرضون بأوضاعهم الاجتماعية مادامت مقدساتهم التي تتبلور خاصة في الدين الإسلامي، واللغة، وأماكن العبادات، بالإضافة إلى عاداتهم وتقاليدهم لم تنتهك انتهاكا، ولو أحسن الحكام الأتراك حسن التصرف لما تعرضوا للانتقام أو ثورة داخلية تستحق الذكر، ولكن بعض هؤلاء الحكام مثل الحاج علي باشا قد تجاوزوا حدودهم، وسفكوا دماء كثير من المواطنين وبعض أعيان البلاد دون أن يرتكبوا أية جريمة، ولاسيما بعد تجنيد ما يسمى بالميليشيا التي دخلها يهود ويونانيون ختنوا أنفسهم، ثم صارت ترتكب مخالفات ضد البدو والقبائل، بل غدت هذه الميليشيا تتدخل في شؤون البلاط للدولة فتعزل من تشاء، وتتآمر على من تشاء، وتولي من ترى فيه نقص المهارة، وتشتتم فيه رائحة الجنوح إلى قضاء مآربها ومصالحها، مما جعل الاضطراب الاجتماعي يسود البلاد كلها فاندمنت تلك الثقة السياسية المعهودة في الحكام القدماء وقل الأمن أو زال من البلاد، إلى درجة أن الداوي عليا الذي ارتكب كخلفائه جرائم نكراء، أمر بنقل خزينة الدولة من محلات الباشا القديم إلى القسبة ليلا بعدما أمر سكان العاصمة أن يغلقوا أبوابهم حتى لا يتفطنوا لحركته، وإذا كانت دولته لم تدم أكثر من ستة أشهر بسبب وفاة هذا الأخير بمرض الطاعون، فإن خزينة الدولة في مقرها الجديد لم تسلم من نهب وزرائه وأعضاء من حاشيته، وربما كان الداوي حسين الذي خلفه آخر الدايات نزاهة وفضيلة.

العلاقة الاجتماعية بين المواطنين:

يقر صاحب المראה ويجزم أن سكان إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة إبان الغزو الفرنسي⁽⁵⁾ ولربما انفرد حمدان خوجة وحده بهذا العدد، وإلا فمن المستبعد جدا أن يكون سكان الجزائر على النحو الذي ذكر، بل كان أقل من هذا العدد، لأن المدن لم تكن ذات كثافة سكانية باستثناء تلمسان، أما مدينة كعنابة مثلا فإن عدد سكانها إبان الغزو الفرنسي لم يكن يتعدى ثلاثة آلاف ساكن، والعاصمة نفسها مهما قبلنا عددها المبالغ فيه فإنه لا يتجاوز عدد سكان تلمسان أي مائة ألف ساكن.

ودخولا إلى الموضوع فإن السكان كانوا متآزرين اجتماعيا مع الطبقات المعوقة أو ذوي العاهات المختلفة، إذ في الوقت الذي كانت تعامل فيه هذه الفئات بقساوة من لدن الأوروبيين، كانت تعامل بلطف

ولين ومساعدة من المواطنين، وذكر أحد الرجالين الألمان وهو فيلهلم أنه طوال العشرة أشهر التي عاشها في مدينة الجزائر لم يشاهد أوروبا واحدا يقدم مساعدة لأي أعمى من العميان بل على العكس كانوا يعاملونهم معاملة سيئة، بينما شاهد موقف المواطنين إزاءهم موقف عطف ومؤازرة كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، كما أن ظاهرة الشحاذة لم تكن في غيرهم من الطبقات الاجتماعية، لأنه كان من العار على الأصحاء أن يتسولوا في نظر الجميع⁽⁶⁾.

اللغات:

واللغات المستعملة في مدينة الجزائر كانت عديدة مثل العربية والاسبانية والفرنسية والإيطالية والألمانية والانجليزية والهولندية وسواها ممن لم يعرف له الرحالة الألماني فيلهلم أصلا ولا نسبا⁽⁷⁾، الأمر الذي يدل على أن الجزائر كانت تعج بموجات بشرية عديدة، وبحركة اقتصادية وتجارية وسياحية مزدهرة، علما بأن بناياتها كانت تبلغ طبقا لإحصاء عام 1832 حوالي 15000 بناية.

مظاهر الحياة في ضوء أغنية شعبية:

أما المقاهي فقد كانت سمة من سمات هذه المدينة، حيث كانت تعد بالعشرات، وتبيت فاتحة حتى الصباح، وكان القوم يتقاطرون عليها منذ الثامنة ليلا للسماع إلى موسيقى وأغان عربية، واستطاع أحد الرجالين الألمان أن يسجل لنا إحدى تلك الأغنيات كلماتها:

عندما دققت الباب

رن نائحا صوت الناقوس

قلت: أين أحبابنا يا دار؟

فخف إلي طير من السماء

وهمس في حزن أليم: أتسأل عن أحبابك؟

لقد ذهبوا... فلم الحزن؟

ألست في بلاد فيها يعيش أهلي وأحبابي؟

كلا، أنا في بلاد تمزق فيها قلبي والنهب كالحطب

لا تكتب إليهم أيها الكاتب

فالفراق بيني وبينهم

إذا بقيتم بعيداً عني يا أحبابي، فسوف أقسو عليكم في كتاباتي

سأسحق الرمل والصوان بين أسناني

سأكؤم البحر فنجانا صغيرا أضعه فوق رأسي وأدعو الله أن يلطف قلوبكم الظالمة القاسية.

كيف جرؤت أن تنشر نورك يا يوم الفراق؟

ها قد احترق قلبي ألما، ونديت دخيلتي حزنا !

فلماذا أشقيت حياتي؟

آه منه ! آه من يوم الوداع، يا أحبابي !!

ويعلق الرحالة الألماني على كلمات هذه الأغنية التي كان الناس يلذ لهم أن يسمعوها في مقاهي المدينة قائلا: "ولا شك أن هذه الأغنية تصور حقيقة الحزن الذي امتلأت به النفوس بعد الاحتلال، حين اضطر كثير من المواطنين إلى الهجرة، كما تجسد غضب من أقام على من ارتحل"⁽⁸⁾.

وإذا ما صرفنا النظر عن بنيتها اللغوية والأدبية واهتمنا ببنياتها الاجتماعية، فإنه لا يعنينا بعدما فقدت أصلها العربي، فضولنا إلى التساؤل: أكانت شعبية فصيحة أم عامية؟ مكسرة الوزن أم مثقفة؟ ولكن ما يعنينا أكثر في هذا المقام أنها تعبر بصدق عصري عن الاكتساحات الأجنبية الجديدة التي تجلت منذ بداية الاحتلال الفرنسي في محاولة التشويه والتهجير والتعذيب والتجويع وما ضم إليها... لأن رنين الناقوس قد يكون الجرس العادي وقد يكون فعلا ناقوس الكنيسة الجديد بتحويل مساجد إلى كنائس مثل مسجد كتشاوة وغيره، وتبين لنا هجرة الناس الإجبارية فرارا بدينهم ولغتهم وعرضهم... وما الطير الذي خف إلى السائل إلا طير الاستعمار الذي فاجأهم من وراء البحار الذي أجابه ساخرا ومعدبا السائل بحزن وألم: "أتسأل عن أحبابك؟ لقد ذهبوا... فلم الحزن؟ ألسنت في بلاد فيها يعيش أهلي وأحبابي؟".

لكن من هم هؤلاء الأهل والأحباب؟ ما هم إلا المعمرون الجدد الذين اكتسحوا الجو والبر والبحر واستحوذوا على الأخضر واليابس، وسلبوا ملاكه الشرعيين قوة وجبروتا، فيكون جواب السائل والأعلى على عدم الاقتناع والرضى بالوضع الجديد المفروض حيث يجيبه: "كلا، أنا في بلاد تمزق فيها قلبي والتهب كالحطب".

وآخر مقطوعة منها تعبر عن وداع عهد سمح مألوف مشرق، والتأهب إلى عناق ومن جديد فظ مظلم، زمن العذاب والاستعمار.

الحياة الاجتماعية والمقاهي:

وصارت الأحياء تعرف إما بحبي عربي أو حي أوروبي، وكان الحي العربي يتميز بالبؤس والضعة وكثرة المقاهي (60 مقهى) التي لم تكن تخلو في أي يوم من أيام الأسبوع من الموسيقى التي كان يشرف على عزفها فنانون جزائريون يوصفون بأنهم مهرة وعباقر، وكان القوم يميلون إلى الأنغام الهادئة الرتيبة، وينفرون من الأصوات العالية التي تذكرهم بققعة مدافع الغزو الفرنسي⁽⁹⁾.

وكانت تلك المقاهي تجمع شتاتاً من مختلف الأجناس والأذواق والأهواء والأديان، ولم تكن تخلو من خلاعة ومجون، وليس ذلك وقفاً على العاصمة وحدها، بل كان أمراً شائعاً في مدن جزائرية أخرى مثل مدينة القليعة.

وأعظم ما تنتعش وتزخر هذه المقاهي في شهر رمضان المعظم، وكان الغزاة الجدد يستحسنون هذه المظاهر ويشجعونها حتى يرضع الشباب من أثناء تلك السهرات المفتوحة السموم الأخلاقية، ويلهى عن قضيته الجوهريّة.

وإذا كانت مثل هذه المقرات المفتوحة للخلاعة تدفع ضرائب للداي من قبل، فإنها بعد الاحتلال أعفيت من دفعها، مما جعل عددها يعظم ويتزايد بل زودتها فرنسا بجيش من الفتيات "يفوق عددهن عدد المعمرين بثلاثة أضعاف"⁽¹⁰⁾.

تطور الأسرة الجزائرية:

والأسرة الجزائرية كانت متطورة ومتفتحة وغير معقدة، فعن أحد شهود عيان من الملاحظين قال: "وقد أتيح لي أن أراقب امرأة كانت تسكن بجواري، فحين يعود الرجل إلى البيت تستقبله الزوجة معانقة إياه مقبلة، وتجلسه قربها فوق الأريكة، ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين، فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم"⁽¹¹⁾.

ويحكي نفس الملاحظة أنه أرسل امرأة إسبانية تتجسس له على وضع عائلة من حيث أثاث البيت وحياته الداخلية والأعمال المنزلية، فكتبت له العميلة تقريراً، اتضح من خلال بعض الكلمات التي ترجمت أن تعابير الاستقبال الشعبية التي نستعملها اليوم هي نفسها منذ سنة 1832 مثل: "أشكون؟ واش حالك؟ كيف أنت؟ صباح الخير...".

المرأة الجزائرية وتفتحها:

ويفسف الرحالة نفسه المرأة الجزائرية في هذه الحقبة الأولى من الاحتلال بأنها كانت تعيش كالسجينة تقريبا، ولكنه يفسر ذلك السجن بسبب غيرة زوجها، وليس فقط إلى العادة المتبعة، ويقول: "فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر" (12).

ولنستمع إلى إحداهن وهي تغني وتطحن البر بالرحى العربية الحجرية فتقول: (13)

أراني أطحن...أطحن والرحى تدندن

أغني وأخاطب أختي

إبقّي في الخارج، ففي "القربي" الغبار

سأخرج إليك بعد قليل لأحدثك

بابا عبد الله، أراك ذاهبا إلى السوق

فخذ زوجي معك، فهو لم يذهب إليه منذ مدة، ليست به حاجة إلى أن يرى ويسمع كل شيء.

هذه المقطوعة الشعبية تبين لنا ما كانت تكابده المرأة الجزائرية بعد الاحتلال من تعاسة ولكن في صبر وعز، ومن حرمان وشؤم ولكن في شرف وأبهة ومجد...وتدلنا على مصطلح "القربي" المسكن الجديد من الطوب أو الخشب والقصب للمواطن، حتى إنها لتخشى على أختها من دخوله حتى لا تتوسخ وتفضل أن تستقبلها في الخلاء بدلا منه.

ظواهر اجتماعية في قصيدة شعبية هزلية:

وحتى نعمق الوضع الاجتماعي منذ بداية الاحتلال رأينا مرة أخرى ومن الأفيد أن نورد قصيدة شعبية لاذعة تترجم وتنتقد تلك الألقاب البراقة التي أضفاها الاستعمار على أشخاص انتهازيين استهوتهم وصاروا سدنة له وعبيدا:

السيد القائد رجل مهيب

يرتدي قفطانا موشى بالذهب

فوقه برنوسان من الحرير الخالص

له شاشية من تونس وعمامة من أسطمبول

وشاوشه يحمل عصا كبيرة

والسيد القايد يأخذ دوير والبايلك

يأخذ ثيراننا...ويأكل قمحنا

ويقضي الليل عند حريمنا

ليتني كنت قائدا !

سيدي الشيخ رجل كبير، كان أبوه

في وقت ما خماسا فقيرا، وكان هو نفسه

يرعى الماشية مقابل أربعة دويرو

في العام كله لم يكن له سوى قميص

قصير وزوج من الأحذية وبرنوس مهلهل

لكنه الآن يزرع عشرين جبة من الأرض

بثيراننا وبمحراثنا وبزرعنا..بعد أن

سرق ذلك من الحكر .

ليتني كنت شيخا !

ال دراويش والماريطون أناس أتقياء جدا

حول رقابهم سباحات كبيرة

وفوق ظهورهم أكياس ضخمة

يصلون كثيرا، ويأكلون أكثر مفضلين

القمح على الشعير .

فلماذا الغلة قليلة في المخزن؟

ولم الزبدة قليلة في القرية؟

الولي لا يرفض أي شيء

ليتني كنت درويشا !!!

إن هذا الشاعر أو المواطن يتساءل عن نصيبه الضائع وأمله التائه، فهو ليس في منزلة واحد من الثلاثة الذين غدوا يشكلون القوة الثالثة، وينفذون أوامر الغزاة مقابل السكوت عنهم في نهب ما يشاؤون من مواطنيهم، وأضحى المواطن في النهاية والمغلوب على أمره يتمنى فقط أن يكون درويشا حتى يكون له

حظ من العيش المضمون ولكن أواه ! حتى هذه المرتبة الدنيا صارت مستحيلة عليه، فماذا عساه أن يصنع؟

إلا أن هذه القصيدة صورة من فيلم حي طبق الأصل لبعض المظاهر الاجتماعية التي كانت ما قبل الاحتلال واستمرت بل استفحلت ما بعده مثل ألفاظ القايد، البايك، الشيخ، الخماس، المرابط، الدرويش...بالإضافة إلى أنواع الملابس التي كانت تخص كل طبقة سياسية أو دينية...وكيف أن الاحتلال كان نعمة سعيدة لأفراد وصوليين قليلين جدا، ونقمة و تعاسة على الفئات الساحقة من الشعب.

مصطلحات لغوية شعبية:

هذه المصطلحات اللغوية الاجتماعية يبدو أنها كانت قَطْعًا موجودة خلال العهود التركية، ولكن الفرنسيين رأوا فيها فائدة لإثباتها بل تشجيعها، فهم كانوا في حاجة إلى قوة ثالثة مهما كان شأنها، ولكنها بعد الاحتلال صارت أكثر شيوعا وأهمية منها قبله...وصارت هذه المصطلحات جزءا أساسا في البنية الاجتماعية الوطنية رغم رداءتها ومهانتها، ولكنها غدت تميز هذه البنية الوطنية من الجاليات الأجنبية، إذ بمجرد ما يقال لك "القربي El-Gourbi" و"الخماس" و"الدوار"...ونحوهن تدرك سريعا أن هذه أمور تتعلق بعرب ولا تتصل في شيء بأجانب، حتى وإن كان البعض يحاول إنكار وجود الدوار وما قبل الاحتلال معتمدا على تقرير يرجع إلى أبريل من عام 1863، ثم يقر أنه من صنع الاستعمار لتهديم البنية الاجتماعية⁽¹⁴⁾، وكأننا تعودنا أن نعزو كل ما غمض عنا إلى الاستعمار، والحق أن كلمة الدوار لفظا ومصطلحا وتنظيما قرويا اجتماعيا وجدت ما قبل الاحتلال مثل كلمتي الخماس والقوربي التي دخلت اللغة الفرنسية.

ففي وثيقة حية كتبها أحد الأجانب تعود إلى الرابع أبريل عام 1835 تصف إحدى المناطق الشرقية من البلاد، جاء فيها "إن كوكبة الفرسان كانت أثناء الليل قد هاجمت وحرقت دوارا عربيا بأكمله، وقتلت العدو الذي أخذ على غرة وهو نائم⁽¹⁵⁾، ثم جاء في الوثيقة نفسها: "...وخلال ذلك مروا بدواوين قَبِل سكاثهما بالعيش في دائرة الفرنسيين...ولكن كلابهم لم تكن صديقة لنا فطاردتهم نابحة غاضبة، وأثناء المرور بالدوار الأخير أشار الضابط الفرنسي الذي كان يرافقه إلى فتاة جميلة نظيفة واقفة عند باب الخيمة"⁽¹⁶⁾.

رثاء سقوط مدينة الجزائر:

ولما احتل الفرنسيون البلاد، وبثوا الأحزان، وزرعوا الآلام، وشتتوا الأهل والأحباب، فالبعيد غبر، والقريب صار أبعد، بفعل التجاوزات الهمجية الحيوانية التي لا تمت بصلة إلى طبائع الأجناس البشرية، مثل

المذابح والمجازر الجماعية، وهتك الأعراض والتعدي على أدنى حقوق الإنسان... ثارت قرائح شعرائنا سواء أكانوا ينظمون بالعامية أم بالفصحى، وصرحوا يصفون ويرثون أسفين متمزقين، ومن هؤلاء محمد بن الشاهد الذي رثى سقوط مدينة الجزائر وهو عندئذ ابن مائة سنة، والحق أن هذا الرثاء ماهو إلا رثاء وصف لحالة البلاد كلها، أو ماهو إلا تعبير بالجزء عن الكل كما يقال: والقصيدة: (17)

أَمِنْ صَوْلَةِ الْأَعْدَاءِ سُورُ الْجَزَائِرِ	سَرَى فَيْكَ رُعْبٌ أَمْ رَكْنَتْ إِلَى الْأَشْرِ
لبست سوادَ الحزنِ بعدَ مسرةٍ	وَعَمَّتْ بَوَادِيكَ الْفَتُونُ بِلَا حَصْرِ
رَفَضْتَ بِيَاضَ الْحَقِّ يَوْمًا فَأَصْبَحْتَ	نَوَاحِيكَ تَشْكُو بِالْأَمَانِي إِلَى الْجَوْرِ
وَلَيْتَ دَرَسَ الْعِلْمُ، وَالْجَهْلُ عَسَعَسَا	وَنَادَى بِتَعْطِيلِ الْعُلُومِ عَلَى النَّشْرِ
وَنَاحَ عَلَى الْأَسْوَاقِ طَيْرٌ خَرَّابَهَا	فَأَصْبَحَ فَأَسَ الْهَدْمِ يُنْبِئُ بِالْغَدْرِ
أُصِيبْتُ بِسَهْمٍ مِنْ عَيُونِ سَهَامِهَا	ثُرَادٌ عَنْ الْمَعْيَانِ بِالشَّفْعِ وَالْوَثْرِ
فَأُظْهِرْتَ لِلْأَعْدَاءِ وَجْهَ سِلَاحِهِ	وَأُبْرِزْتَ لِلْأَحْبَابِ وَجْهًا مِنَ النِّكَرِ
عَلَيْكَ لَقَدْ أُجْرِيَتْ نَهْرٌ مَدَامَعِي	وَفَيْكَ اسْتَحَقَّ الْعَقْلُ سَكْرًا بَلَا خَمَرِ
نَقَضْتَ عَهْدًا بِالْوَدَادِ تَقَرَّرْتَ	وَوَالَيْتَ أَقْوَامًا تَوَالَتْ عَلَى ضَرِّ
فَجَاسُوا بِرُوجَا لِلْحُرُوبِ تَشِيدَتْ	وَدَاسُوا دِيَارًا بِالنَّوَاهِي وَبِالْأَمْرِ
وَنَالُوا مِنَ الْأَمْوَالِ يَسْرًا مِيسِرًا	وَفَازُوا بِهَا وَالْقَلْبُ يَصْلَى عَلَى الْجَمْرِ
وَمِنْ لَطْفِهِ أَنْ السِّیُوفَ أَتَتْ لَنَا	وَسَلَّتْ عَلَى الْأَشْجَارِ تُقَطِّعُ بِالنَّمْرِ
فَضَجَّتْ أَنْاسُ وَالْعُقُولِ تَوَلَّهَتْ	وَبَاتُوا عَلَى حُزْنِ الْفِرَاقِ بَلَا فِكْرِ
فَبَاعُوا نَفَاسَ الْمَتَاعِ بِبَخْسِهَا	وَهَامُوا حَيَارَى فِي الْفِيَا فِي الْبَحْرِ
فَآهٍ عَلَى جُهْدِي وَمَا بِي مَنَاعَةٌ!	وَأَهٍ عَلَى دَارٍ يَسُودُ بِهَا غَيْرِي
أَمُوتْ وَمَا تَدْرِي الْبَوَاكِي بِقِصَّتِي	وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ وَالْأَنْسُ فِي الْكُفْرِ؟!
فِيَا عَيْنَ جُودِي بِالدِّمُوعِ سَمَاحَةً	وَيَا حُزْنَ شَيْذٍ فِي الْفُؤَادِ وَلَا تَسْرِ
وَيَا صَاحِ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ لَخَالِقِي	فَصَبِرًا عَسَى عُسْرٌ يُبَدِّلُ بِالْيَسْرِ

إنّ هذه القصيدة تعد وثيقة أدبية تاريخية عزيزة، وإذا كان المرء يميل إلى الاعتقاد فعلا بأن الشعر مرآة ناصعة تنعكس عليه المظاهر الحياتية لمجتمع ما، خاصة وأنها قيلت في مطلع الثلاثينات من القرن الماضي، فإن أولى ما ينبغي أن يكون حقيقة هذه الرائية التي تعكس لنا صورة وطنية محسة وصادقة، حتى كأنها فيلم ملون يقفنا الآن فقط على هذا الاحتلال، وما صحبه وتبعه من سطو ورعب وأسى في

البلاد بواديها وحواضرها، وكيف أن المدارس والعلم قد تعطلا وأدبرا ليحل محلهما الجهل والدجى، وكيف أن الأسواق قد تخربت، ومعاول من الغدر خيمت، حتى كأن هذه المدينة بفعل قوة الصدمة قد تغيرت وأضحت لا تميز بين طارفها وتالدها، وعدوها الجديد وحميمها القديم...

ثم يصف همجية المحتلين بدوس ديار آمنة بمداوس شتى لم يعرف التاريخ المعاصر مثيلاً لها، وسلبهم الأموال الطائلة، والناس ينظرون ويتألمون ويصلون ناراً، ويعرض بالمحتلين تعريضاً شنيعاً بأن الله قد لطف بهم لأنهم صرفوا سيوفهم وصبوا جام غضبهم على قطع رؤوس الأشجار سواء ما كان منها مثمراً أم غير مثمر بدل توجيهها إلى قطع رؤوس السكان كعادتهم تفريجاً للهموم والكروب على حد تعبير بعض الجنرالات...

ويصور لنا مأساة مازلنا حتى الآن نعاني منها، وتتمثل في هجرة الناس بيوتهم وبيعهم متاعهم بأبخس الأثمان هروباً بدينهم وعرضهم ووطنيتهم في الصحاري والمجاهل وحتى عبر البحار مشرقاً ومغرباً، حين لا تبقى إلا الهجرة السبيل الوحيد.

ويتحسر شاعرنا على كونه الآن ابن المائة سنة، فهو لا يستطيع الجهاد، ولا الهجرة، ويتمزق غيظاً على البلاد التي أصبح فيها سادتها عبيداً مستعبدين، والدخلاء الغرباء عليها سادة مسودين، لهذا فإن عيشه غداً علقماً أو أمراً، لأنه يستحيل على مواطن شريف مسلم أن يعيش في بلد عَشَّش فيه الكفر والشرك...

غير أنه في النهاية يعود بعد غياب بعيد إلى رشفه مؤمناً بالقضاء والقدر خيره وشره، داعياً إلى الرجاء بدل اليأس، مؤملاً أن تتبدل أحوال هذا البلد من عسر إلى يسر، مضمناً إحدى الآيات القرآنية الكريمة.

وشهد شاهد من أهلها:

ومن المأسى التي تعرض لها هذا الشعب إثر الاحتلال مباشرة ما تحكي منه جانبا اللجنة الإفريقية: "لقد قتلنا أناساً كانوا يحملون رخص التجول، وذبحنا سكان مدن وقرى مشكوكاً فيهم، وظهر فيما بعد أنهم كانوا أبرياء، فحاكمنا رجالاً مشهورين في البلاد بورعهم وتقواهم... وتعرضوا لبطشنا وبأؤوا بغضبنا"⁽¹⁸⁾.

وهذا الجنرال رفيغو يصف عملية إبادة قرية قبيلة العوفية في السادس أبريل 1832 قائلاً: "في العودة كان جنودنا الممتطون ظهور الخيل يعملون الرؤوس البشرية على نصل سيوفهم، أما حيواناتهم فقد بيعت للقنصلية الدانمركية، وأما أجزاء الجسم الملطخة بالدماء فقد صنع منها معرض في شارع باب عزون، وكان الناس يتفرجون على حُلِّي النساء في سواعدهن المقطوعة وآذانهن المبتورة"⁽¹⁹⁾.

ثم اسمع معي إلى الكولونيل دي مونتانياك وهو يعرف لنا صديقه الجنرال الشاب لاموريسيير، ويثني عليه ثناءه على بطل شهم مغوار: "عاش لاموريسيير، هذا ما نسميه بالصيد الحقيقي الذي يقوم به الصياد في براعة وتوفيق... إن هذا الجنرال الشاب الذي لا توقفه أية عقبة، والذي يجتاز المسافات في برهة وجيزة، يمضي ليخرج العرب من أوكارهم في دائرة قدرها خمسة وعشرون فرسخاً، ويسلبهم كل شيء يملكونه: النساء، والأطفال، والقطعان، والمواشي،... إلخ"⁽²⁰⁾.

ثم يردف في تباهٍ وجلال وعجرفية هستيرية: "وتسألني في فقرة من رسائلك عما نفعله بالنساء اللواتي نأسرن، فأقول: إننا نحتفظ ببعضهن بمثابة رهائن، ونبيع الباقي لقاء الجياد أو نبيعه بالمزاد كما نفعل بالمواشي،... وكنت أحياناً أفرج همومي بقطع الرؤوس لا رؤوس الأشجار بل رؤوس الرجال"⁽²¹⁾.

تشريد الأهالي واستلابهم:

أما الجزائريون الذين طردوا أو نُفوا أو شردوا،... فإنهم لم يحصلوا على أي تعويض من جراء ما سلب ونهب منهم من ممتلكات وعقارات، حتى إن الجيش الفرنسي لكان يقلع الأبواب ويكسرها ويحرقها، وكان الجنود ينهبون باطن الأرض بحثاً عن الكنوز الموهومة،... والقرار الذي نشره السيد الجنرال كلوزيل أول إقطاعي حقيقي في 1830/10/29 في أربع مواد حيث يأمر فيه أن يعوض المنهبون لم يستند منه إلا بعض الأشخاص وبشق الأنفس على قيمة الكراء من صندوق أملاك الدولة، وأجل الآخرون الذين لم يعوّضوا بعد ذلك، وهكذا بقي قرار السيد كلوزيل أمراً أجوف بلا روح.

والسبب في ذلك أن هذه المواد الأربع التي أصدرها السيد كلوزيل تتعارض تماماً مع عمليات التهديم التي كان يشرف هو عليها أو يأمر بها طوال ولايته على الجزائر، بل في عهده المظلم نهب الأموات في مدافنهم، وسمح بالاتجار بالعظام البشرية المنبوذة، وبيعت حجارة المقابر لتحوّل إلى مادة الجير، ووقع الاستيلاء على آجرها⁽²²⁾، فأنى شخصية تدوس المقدسات، وتنتهك حتى حقوق الأموات،... أن تحترم فيما تصدر من قوانين ولا تتابع بجدية تنفيذها؟ بل نجد هذا السيد الكولونيل وغيره أمثال بعض الجنرالات يقترحون على حكومتهم إبادة الشعب الجزائري بأكمله، لأن إخراجهم من منازلهم، ونفيهم من الصحاري والجبال الجرداء وهدمهم صانعهم ومساجدهم، ونهبهم لممتلكاتهم، واعتداءهم على أعراضهم،... لم يشف غليلهم الدفين، وحقدهم المكين،...⁽²³⁾.

لم يكفهم قول أمثالهم: "لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات، وكانت نساؤهم طرائد فاخرة في نظرنا، والواقع أننا عدنا ومعنا برميل من الآذان التي جمعناها زوجاً وزوجاً من الأسرى، سواء أكانوا أعداء لنا أم أصدقاء"⁽²⁴⁾ هل هناك إبادة بعد قطع الرؤوس، وبتير السواعد، وقص الآذان وبيعها

وإقامة معارض جميلة بها لوحوش بشرية ضارية تتفرج عليها وتعاف طعمها؟ ألا يكفيهم أحلام الماريشال كلوزيل بأنه سيجعل سهول متيجة "مستودعا للتسول الأوروبي"؟ ومن ذا الذي سيخدم هذه الأراضي لفائدة الكولون؟ أبناء فرنسا أم أبناء أوروبا أم سواعد الجزائر؟ لاشك في أنهم فطنوا أخيرا، وكادوا يخطئون خطأ اقتصاديا لم يكن ليغفرها لهم جشعهم وحب الثروات، ولو لم يصدر السيد ألبيرسارو كتابه: "La mise en valeur des colonies françaises" إلا في غاية سنة 1923، والذي سنشير إلى أسبابه بعد حين، لقلنا إن السيد ألبيرسارو الخبير بأهمية الرأسمال البشري الذي بدونه لن يكون هناك رأسمال ولا ثروة هو الذي أوحى لهم بالعدول عن إبادة هذا الشعب.

وأين التعهدات التي فاه بها الماريشال بورمون أثناء نزوله بأرض الجزائر والتي وزعها بواسطة عملاء على السكان؟ ألم يتعهد باسم الأمة الفرنسية وجملة ملكها بأنه سيقضي على نظام الظلم السائد في مملكة الجزائر؟ أين تعهدات الجنرالات الفرنسيين مع الداوي المستسلم، ولا سيما المادة الخامسة التي تنص على أن "تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات ولا على دينهم وأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم، ونساؤهم سيحترمون"⁽²⁵⁾.

الأوضاع المزرية للجزائر كمقاطعة كولونiale:

وفي 1834/07/22 أصدرت فرنسا قرارا يقرر أن الجزائر كلها أصبحت مقاطعة فرنسية، وبعد صدور ذلك القانون المشؤوم على كلا البلدين، اتضح جليا أنه قانون لا يخدم إلا سياسة الكولون الاجتماعية والاستيطانية والاستقرارية دون الجزائريين، وزكّت هذا القانون بأن أرسلت العمال العاطلين عن العمل إلى الجزائر تخلصا من شرهم ووبائهم.

ويذكر لنا حمدان خوجة الذي كان حاضرا وقتها أوضاع السكان الاجتماعية المزرية بعد بداية الاحتلال، وهجرة الكولون من كل آفاق أوروبا: "لقد حصل الأوروبيون في الجزائر على الملكيات بشروط كلها لصالحهم، إنهم كانوا يستطيعون الامتلاك بواسطة الربح الدائم أو بأثمان زهيدة، وهذه الطريقة للحصول على أملاك قد استُوردت حديثا لبلادنا، ولا يسمح بها قانوننا الإسلامي... أن السكان الذين غادروا البلاد برضاهم قد وافقوا على هذا النوع من المعاملات ليتمكنوا من الاعتناء بمساكنهم، ومن أن يستخرجوا منها بعض المنافع، ولكن هناك من المالكين الأوروبيين من استغل الثقة وأحدث كثيرا من الخسائر، فهذّموا كل ما يمكن أن توجد فيه أشياء تباع للاستفادة منها، وضاعت حقوق المالكين القدماء في تلك القضايا، لأن الهدم كان يقع في حين أنه لم تكن هناك إمكانية لاستبقاء حقوقهم، خاصة وأن معظم عقود البيع كانت تتم بواسطة تحايل السماسرة اليهود"⁽²⁶⁾.

"فائض سكاننا":

وعموماً، فإن ما أسماه الجنرال جيرار "فائض سكاننا" قدر بعشرات الآلاف ثم مئات الآلاف من الرجال الذين كانوا في فرنسا وفي بلدان أوروبية غير مرغوب فيهم، فيرسلون على شكل نفي في صوره تعمير مفعم بإغراءات مادية خيالية للفرد الواحد، ولاسيما بعد حوادث حزيران 1848، وكذلك الألوف من أهالي الألزاس واللورين الذين رفضوا أن يصبحوا بروسين فأرسلتهم الحكومة الفرنسية إلى الجزائر عام 1871... ولذلك فلا تعجب إذا وجدنا هؤلاء بعد فترة يسمون أنفسهم فرنسيي الجزائر معارضة لاسم فرنسيي فرنسا⁽²⁷⁾.

ثم إننا لا يأخذنا أي استغراب إذا علمنا أن عدد الأوروبيين سنة 1866 بلغ مائتي ألف نسمة ليرتفع بعد عشر سنين إلى 344 ألفاً منهم 189 ألف فرنسي، كما أن اليهود أصبحوا بفضل مرسوم "كريميو" يتمتعون بالجنسية اليهودية، وفي سنة 1899 صدر قانون التجنيس التلقائي الذي يخول الأبناء الأجانب المولودين في الجزائر أن يكونوا فرنسيين تلقائياً، مما أدى إلى ارتفاع عدد الفرنسيين في الجزائر عام 1911 إلى 752 ألفاً بالإضافة إلى 189 ألف أجنبي.

الجزائريون في جزائرهم رعايا فرنسيون:

وبعد نداء نابليون الثالث التاريخي في عام 1863 ظهر القانون المعروف بـ"السيناتوكونسولت" في 1865/07/04 الذي يحدد طبيعة الجزائريين أو بعبارة أخرى يعرفهم وكأنهم أضحو منذ حلول الاستعمار بأرضهم مجهولين أو غامضين "بأنهم رعايا فرنسيون"، ولكنهم يخضعون لأحكام الشرع الإسلامي، وإذا ما طلب أدهم الجنسية فإنه يحصل عليها، وفي هذه الحالة يصبح خاضعاً للقانون الفرنسي⁽²⁸⁾.

رفض المواطنين التجنيس:

ومن الواضح أن هذا القانون لم يحل الإشكال القائم في ذهنية الإدارة الفرنسية، إذ هو فرنسي من حيث كون نابليون الثالث أعلن نفسه إمبراطوراً لأن الجزائر أرض فرنسية، وعربي مسلم يحاسب حساب أجنبي غريب إذا هو لم يطلب الجنسية الفرنسية التي أغري بالحصول عليها، أي أنه لا يصير فرنسياً إلا إذا تخلص من أحواله الشخصية العربية الإسلامية، لكن هذا القانون عورض من جل المواطنين الشرفاء في حينه، وصار مثار جدل ومعارضة شديدة فيما بعد من لدن الحركة الوطنية وفي مقدمتها الأمير خالد، ثم حزب الشعب الجزائري.

لكن هذا الإغراء الذي هلل له اليهود وتبنوه بدون تردد لتعاطي الجنسية الفرنسية حتى وإن كنا نعرهم لعدم وجود أي انتماء قومي أو كيان حضاري لهم، والذي كبر له الكولون أيضاً سنة 1899

ليصير أبناءهم المولودون في الجزائر فرنسيين بصورة آلية، لم يجد آذانا صاغية لدى الجزائريين، إذ ما بين 1865 إلى 1875 لم يتجنس إلا 371 جزائرياً، بل منذ سنة 1865 حيث صدر قانون السيناتوكونسولت وحتى عام 1916 لم يبلغ الراغبون من طلب الجنسية سوى 2207 لم يقبل منهم غير 1725، ورفض 482 طلباً⁽²⁹⁾.

إن هذا الإحصاء يبرهن على خيبة أمل فرنسا، لأنها ظنت أن الجزائريين ذوي التاريخ العريق، والمجد الأثيل، والدين الإسلامي الحنيف والانتماء العربي...مثل اليهود أو تلك الشراذم الأفارقة من قطاع الطرق والمجرمين الذين دبوا من كل أنحاء أوروبا التماساً للنهب والسطو والبحث عن الذات مهما كلفهم ذلك من ثمن، إن تجربة فرنسا الناجحة مع هؤلاء أخفقت تماماً مع شعب ظل متمسكا بهويته الوطنية التي لم يقبل فيها أية مساومة أو سمسة عبر تاريخ أجداده الطويل، ويعلق ليون فيكس قائلاً: "منذ عام 1865 حتى عام 1934 تجنس اقل من 25000 مسلم جزائري بالجنسية الفرنسية، وهذا يؤلف المعدل المضحك وهو 36 شخصاً في العام"⁽³⁰⁾.

وأمام هذا الفشل الذريع لقانون السيناتوكونسولت، اخترعت لعبة جديدة لكنها قاسية ومعذبة سميت قانون "الأهلي"، وهو قانون جائر، حتى يجبر أكبر عدد ممكن من الأهالي على التنازل عن أحوالهم الشخصية وتقمص الجنسية الفرنسية، التي بقيت الملاذ الوحيد لإنقاذهم من جور هذا القانون وعذابه وعنصريته.

مهزلة الإنديجانا:

إن شراسة المقاومة الوطنية التي كانت تدق مساميرها في ظهر المحتل، وتزعزع استقراره وتوقظه مما هو فيه من اعتقاد خاطئ بأن هذا الشعب قد ألقى السلاح واستسلم له، هي التي أوجت إلى فرنسا بقانون الأهلي الذي أصبح يضم سنة 1890 واحدا وعشرين عقوبة، وفي كل مرة كانت تتصاعد فيه هذه المقاومة كانت العقوبات الأهلية تزداد حتى وصلت 27 في سنة 1897.

وظهرت الإنديجانا الرهيبة، وهي عبارة عن أحكام عسكرية استثنائية في وقت حرب، وتشمل أربعة أنواع:⁽³¹⁾

1- سلطة الوالي العام الفرنسي في توقيع العقوبات على الأهالي دون محاكمة، وقد استمر العمل بذلك حتى عام 1944.

2- سلطة المسؤولين الإداريين بسجن الأفراد ومصادرة ممتلكاتهم دون حكم قضائي، وقد ألغيت هذه السلطة سنة 1927

3- سلطة المديريات ذات الصلاحيات المطلقة، وسلطة قضاة الصلح بسجن الأفراد ومصادرة ممتلكاتهم، وألغيت عام 1914.

4- سلطة المحاكم الجزرية المختصة بالمسلمين، التي يرأسها قاض فرنسي وعضوية مسلم وأوروبي، وانتهت عام: 1931

أما المخالفات التي بموجبها يسجن مرتكبوها أو تصدر أملاكهم، فهي كثيرة نسوق بعضها منها:

1- التلطف بعبارات معادية لفرنسا.

2- رفض العمل مقابل أي ثمن في المزارع الأوروبية.

3- السكن خارج القرية أو الدوار بدون إذن استعماري خاص.

4- فتح أي مركز ديني أو مسجد أو مدرسة للتعليم بدون إذن مسبق.

5- رفض المواطن حراسة الغابات مجاناً...

ما هذا القانون قانون الغاب؟ قانون يضحك عقول ما قبل العصر الحجري... ثم أهذه هي الحضارة التي بشرنا بها بورمون ثم نايليون الثالث؟ أيق حق لرعايا فرنسيين في وطنهم أن يعاملوا مثل هذه المعاملة الخسيسة؟ وهل عومل على وجه الأرض حديثاً أو قديماً أحرار في وطنهم بمثل هذه التصرفات اللاأخلاقية واللاإنسانية معاً؟ إن هذا القانون الغابي مكن الحكام والمسؤولين من يهود وكولونيين وفرنسيين وخونة من اضطهاد المواطن وتخرُّصٍ أو اختلاقٍ أتقه الأسباب لسجنه أو سلبه، ولذلك لم يكن مخطئاً المؤرخ الفرنسي أجبيرون الذي علق على هذا القانون: "إنها تماثل القوانين السابقة التي كانت تطبق على الأرقاء في جزر الأنتيل"⁽³²⁾.

أما ما يسمى بقانون الدمج المزعوم والذي رفضه الشعب جملة وتفصيلاً، فلم يكن القصد منه كما قد يتصور البعض مساواة الجزائريين في الحقوق والواجبات بزملائهم من فرنسيين أو متجنسين من شعوب مختلفة، بل مساواة الجزائر أرضاً بفرنسا على أنها قطعة منها تأكيداً لما مضى، لأن الجزائريين بعد ظهور قانون الإنديجينا الرهيب صاروا يخضعون لأحكام مدنية وعسكرية استثنائية بقي بعضها قائماً حتى عام 1944 وكان ذلك واضحاً من قانون 1900 الذي يمنح الكولون السلطة المطلقة على الأهالي، إذ يكفي الكولون أن يصرح بصوت هادئ بأن عربياً رفض العمل في حقله مقابل أجر زهيد، أو أمتنع أن يحرس فدانا أو غويبة له مجاناً... فَيُؤْخَذُ عنوة إلى السجن أو تصدر ممتلكاته حتى ولو كان ما يملكه حصيراً رثاً أو أسماً لا أو دابة يتسوق ويسقي عليها.

"الضرائب العربية":

وفي مجال الضرائب، استحدثت فرنسا نوعاً من الضريبة سمّتها "الضرائب العربية"، مما جعل بعض العمال والفلاحين يفضلون العمل في حقول الكولون ومعاملهم هروباً من هذه الدمغة الجائرة التي كانت تتجاوز أحياناً مدخول المواطن السنوي كله... والغريب أن الجزائريين كانوا يدفعون نوعين من الضرائب:

1- زكاة العشر التي كانوا يدفعونها للدولة الجزائرية قبل الاحتلال عن رضى خاطر باعتبارها واجبا دينياً، ولكن الفرنسيين استمروا في إرغام السكان على دفعها وهو ما يتنافى مع الشريعة الإسلامية، لأن رئيس الدولة لم يعد مسلماً، ولأن المواطن كان يدفعها اعتقاداً كصلاته وصيامه وحجه لإنفاقها في سبيل الصالح العام مساعدة للمسلمين.

2- الضرائب القانونية وهي تتماشى مع النظام الفرنسي، بينما كان الفرنسيون والكولونيون لا يدفعون إلا الضرائب الثانية، وهم الأغنياء، إذ الثروة والمال في أيديهم.

كما استحدثت فرنسا نظاماً جنونياً متنوعاً من الضرائب لم يخل من تعسف وتعجيز وازدراء للشخصية الوطنية بموجب قانون الأهلي أو الانديجين، ومنها إتاة الحراسة الليلية لشخص آخر في حالة رفض الحراسة المجانية، ومنها ما كان يفرض على القبائل والعشائر التي تقطن بمحاذاة الغابات... أو كتاك المواد الغذائية المفروضة عليهم لفائدة القياد وحثالاتهم... إلخ⁽³³⁾.

ويصور أحد المعاصرين هذه الوضعية الاجتماعية المأساوية قائلاً: "إن دفع الضرائب في بلاد الإسلام واجب ديني، لأن الأموال المتأتية منها تنفق في صالح المجتمع بصفة عامة، ومعنى ذلك أن رئيس الدولة ليس إلا أمين مال المجموعة، يجمع الضرائب لينفقها في سد حاجات البؤساء والأرامل والأيتام ورجال الدين وأبناء السبيل، وأخيراً، في العمل على صيانة النوع البشري وتحسن أوضاعه، ولكي تكون هذه الضريبة شرعية يجب أن يكون رئيس الدولة مسلماً... وإذا أرغموا على الدفع فإنهم يعتبرون ذلك قرصنة أو سرقة... ومن نتائج هذا التعسف أن جميع السكان هاجروا وفروا وأخذوا جميع ثرواتهم إلى الجبال المجاورة ليكونوا في مأمن من سائر أنواع العدوان، ولم يبق إذا سوى الضعفاء والبؤساء وهم لا يقدرّون على حرث الأرض، وسيكون من الصعب إجبار هؤلاء السكان على دفع الضرائب خاصة بعد أن حرموا من الفلاحة التي هي من أهم وسائل عيشهم، وحتى إذا دفعوا الضرائب فإنهم لن يحصلوا على أمن الطرق ولا على الحماية التي وعدوا بها، بل سيكونون كسكان البلدة الذين اضطهدوا وأجبروا على دفع ضرائبهم بعد أن خضعوا للفرنسيين وتعرضوا بسبب ذلك إلى انتقام سكان الجبال المجاورة لهم والذين هم أقوى منهم، بدلاً من أن يحصلوا على الحماية الفرنسية... ولأجل ذلك تركوا البلاد ووجدوا أنفسهم مجبرين على إقامة العلاقات مع سكان الجبال"⁽³⁴⁾.

حالة الجزائريين الاجتماعية تحت الصفر:

أما عن الوضعية الفلاحية فحدث عنها ولا حرج، إذ صار ثلاثة أرباع السكان يملكون بصورة وسيطة أقل من خمسة هكتارات من الأرض لكل واحد، وهذه الحصة لم تكن كافية للمعيشة، بينما ثمة 1150000 جزائري آخر فوق الخامسة عشرة يعيشون في الأرياف ولا يملكون شيئاً، ومعظمهم تعود على العمل خماساً مقابل أجور زهيدة قد تدفع أو لا تدفع إذا كان يعمل في حقل كولوني⁽³⁵⁾.

ولذلك مع مرور الزمن الاستعماري ساءت أحوال السكان إلى درجة أن أحد أنصار الاستعمار مثل السيد موريس قيوليت قد رثاها حزينا: "إنها لحالة فاجعة حقا... لقد استطعت أو أرى، كما تستطيعون أن تروا أنتم أنفسكم إذا ذهبتكم إلى الجزائر حالة البؤس التي دفعت إليها الأكثرية الساحقة من السكان هناك، فثمت الأكواخ المبنية من أغصان الشجر، والغطاء المهلهل المفروش على الأرض، والأدوات المنزلية البدائية، ولا أثاث هناك..."⁽³⁶⁾.

ووصفت إحدى الجرائد الوطنية المجاعة التي ألمت بالشعب الجزائري عام 1921 فقالت: "إن هذه الكارثة الرهيبة التي تصيب الجزائر من وقت لآخر، سببها الاستيلاء على جزء كبير من أجود أراضي الأهالي الجزائريين، كذلك يعود السبب إلى تحويل أصحاب الأراضي بفعل الاستيلاء على الأرض من قبل الدولة، إلى خماسين وأرقاء"⁽³⁷⁾ الأسباب أيضا كما تذكر الإقدام "الأجور البائسة للعمال التي ما لبثت تتراوح منذ عام 1870 بين فرنك واحد وفرنك ونصف مقابل 12 ساعة عمل يوميا... في الوقت الذي يباع فيه قنطار القمح بـ: 250 فرنكا،... فكيف لا يموت هؤلاء من الجوع حتى وهم يعملون؟... وحتى العمل نفسه غير مؤمن بدليل هذا العدد الذي لا يحصى من الأهالي العاطلين عن العمل والذين لا يحظون أية مساعدة، هذا ما يفسر المجاعة المستوطنة وانفجاراتها التي تحدث من حين لآخر في الجزائر"⁽³⁸⁾.

والغريب أن محاربة الأوبئة عن الأهالي لم يكن لها دافع إنساني كما توصي به كافة الشرائع ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، بل كان ذا حافز اقتصادي صرف لا اجتماعي أو حتى إنساني، لأن اليد العاملة القوية يجب أن يكون أصحابها أصحابا متيني البنية حتى يستغلوا أقصى استغلال لتكون المردودية في الإنتاج أوفر وأضمن، وبين هذه النية السيد ألبيرسارو في كتابه الصادر عام 1923 بأن مقاومة الأوبئة والكوارث من جميع الأصناف التي تقتك باليد العاملة في بعض المستعمرات، ولاسيما في إفريقيا، ضرورة تقتضيها "المحافظة على الرأسمال البشري وزيادته لكي نستطيع أن نشغل الرأسمال المالي ونستثمره"⁽³⁹⁾.

ولذا فليس عجبا أن نجد مع بداية الثورة المسلمة طبيبا واحدا لما بين 10000 إلى 80000 ساكن، وأن عدد وفيات الأطفال في عام 1953 مثلا بلغ 181 حالة في 1000 ولادة، بينما لم تتجاوز هذه النسبة في أوساط الكولون 46 حالة، وفي فرنسا لم تتعد 41 فقط في كل 1000 ولادة، وإذا كانت النسبة في فرنسا تسعة أسرة لكل 1000 شخص، علما بأنها كانت تعاني نقصا في أسرة المستشفيات، فإن هذه النسبة في الجزائر تدنت إلى 2,5 لكل 1000 شخص⁽⁴⁰⁾.

وإذا فعلى الرغم من العناية باليد العاملة القوية لاستثمارها في الحياة الاقتصادية الاستعمارية، والتي نادى بها السيد ألبيرسارو، فإن هذا القطاع الاجتماعي بقي محروما من الخدمات الطبية طوال فترة الاحتلال، فضلا عن الأسباب الاقتصادية فهناك خوف الكولون من نقشي أوبئة الأهالي في أوساطهم،...

الحق الانتخابي:

أما التمثيل النيابي والبلدي فباختصار أنه كان مهزلة كل مشاكل فرنسا أكثر مما كان دليلا على الديمقراطية والمنفعة الوطنية، لأن قانون البلديات لعام 1884 كان يعين الممثلين الجزائريين تعيينا عكس الكولون، وبعد الحرب العالمية الأولى وبالضبط في سنة 1919 صار الجزائريون ينتخبون بشرط ألا يزيد عددهم عن ثلث أعضاء المجلس البلدي، بينما منع ترشيح أي منتخب جزائري لرئاسة البلدية التي كانت من حق الكولون وحدهم، والانتخابات الأخرى التي ظهرت فيما بعد على مستوى المجالس العليا لم تكن أقل مهزلة من الانتخابات البلدية.

خلاصة:

وإذا أردت أن تتساءل عن باقي الأوضاع الأخرى فإنها بالقياس إلى الوضع الاجتماعي المتحدث عنه لن تغيب عنك بأنها لم تكن أقل تدهورا، إلى درجة أن عدها التنازلي ظل في انخفاض مستمر منذ الاحتلال إلى الاستقلال.

هدمت المصانع، وحوربت الصناعات الوطنية التي كانت ما قبل 1830 تغزو الأسواق العالمية، واعتدي على المساجد بتهديم بعضها، وتحويل بعضها الآخر إلى كنائس أو ثكنات أو مستشفيات عسكرية، وأما الفلاحة فلم تعد هناك أرض باقية ماعدا بعض الهكتارات البور لكل عائلة لا يتعدى إنتاجها الإجمالي 500 كيلوغرام بشهادة ما وصفه السيد فيوليت، وأما الثقافة والتربية والتعليم فحسبك أن تعلم أنه مع ظهور شرارة ثورة أربع وخمسين، فإن التمدريس لم يكن يعم إلا فئات محظوظة في الحواضر وبنسبة لا تتجاوز عشرة في المائة، على الرغم من المجهودات التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1931 إلى

وقت اندلاع الثورة المسلحة، وأما اللغة العربية فلم تعترف بها دولة فرنسا كلغة رسمية ثانية في هذا البلد العربي المسلم تماشياً مع قوانين مستعمراتها إلا في سنة 1947.

وهكذا، على الرغم من العوائق القسرية، والمراحل التاريخية المتدهورة في شتى المجالات الاجتماعية، واستحداث قوانين زجرية رهيبة واستثنائية، ورغم المجازر والإبادة الجماعية، ومظاهر المجاعات والإرهاقات... فإن عناصر الأمة الجزائرية ظلت بارزة شامخة في جوعها وعرائها وجهلها ومرضاها... ولكن الأهم أنها صمدت شامخة مشرئبة متطلعة إلى مستقبل جديد قائم على ماضٍ مجيد، فكانت المقاومات الشعبية، وكانت الحركات الوطنية، وكانت الثورة المسلحة ثورة أربع وخمسين، وكان النصر المبين ولبست الجزائر ثوبها الجديد المغسول نظافة وجمالاً بدماء الشهداء، ثوب بناء الجزائر الحرة الكريمة في محيط قاري وعالمي تأخذ أقل مما تعطي، وتوازّر المستضعفين في الأرض، وتقاوم البغي والعدوان، لأنها كانت هكذا، ويجب أن تبقى هكذا إلى أن يقضي ربك أمراً كان مفعولاً.

أهم إحالات البحث:

- 1- الاستعمار الفرنسي في الجزائر ص: 33 د. عدي الهواري، ترجمة جوزف عبد الله، دار الحداثة ط: 1983/1، بيروت.
- 2- المسيرة ص: 93، منشورات جبهة التحرير الوطني المؤسسة الجزائرية للطباعة عام 1980.
- 3- راجع مجلة الثقافة عدد: 85 عام 1985، وزارة الثقافة الجزائر.
- 4- المرأة ص: 219-220 حمدان بن عثمان خوجة تحقيق وتعريب الدكتور محمد العربي الزبيري 3: 1982/2، ش.و.ن.ت.
- 5- المرجع السابق ص: 302
- 6- الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ص: 15 د. أبو العيد دودو 1975، ش.و.ن.ت (الجزائر).
- 7- السابق ص: 12.
- 8- نفسه ص: 16.
- 9- نفسه ص: 65.
- 10- نفسه ص: 69.
- 11- نفسه ص: 12.
- 12- نفسه ص: 13.

- 13- نفسه ص: 104.
- 14- الاستعمار الفرنسي في الجزائر ص: 54.
- 15- تجارب في الأدب والرحلة ص: 278، د.أبو القاسم سعد الله، ط: 1983، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر).
- 16- السابق ص: 280.
- 17- نفسه ص: 113-114.
- 18- حسب الشعب الجزائري ج1/ص: 21 أحمد الخطيب ط: 1986 المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر).
- 19- المسيرة ص: 87.
- 20- الجزائر حتف الاستعمار ص: 55 ليون فيكس ترجمة محمد عيتاني مكتبة المعارف بيروت.
- 21- السابق ص: 55-56.
- 22- المرأة ص: 292.
- 23- راجع المرأة ص: 303.
- 24- الجزائر حتف الاستعمار ص: 56.
- 25- المرأة ص: 204.
- 26- نفسه ص: 295-296.
- 27- الجزائر حتف الاستعمار ص: 33-34.
- 28- حزب الشعب الجزائري ج1/ص: 28.
- 29- نفسه ص: 28-29.
- 30- الجزائر حتف الاستعمار ص: 32.
- 31- حزب الشعب الجزائري ج1/ص: 31-32.
- 32- نفسه ص: 33.
- 33- نفسه ص: 46.
- 34- المرأة ص: 89-90.

- 35- الجزائر حتف الاستعمار ص: 8.
- 36- نفسه ص: 8.
- 37- حزب الشعب الجزائري ص: 63.
- 38- نفسه ص: 63-64.
- 39- الجزائر حتف الاستعمار ص: 18.
- 40- نفسه ص: 19.